من الأدب الهندى

محمد اقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

قدمت فى الرسالة نبذاً من كتاب إقبال الذى سماه « أسرار خودى » فعرف القارىء رأى الشاعر فيما سماه « الذاتية » ورأى كيف ضرب مثلاً من الطائر الظمآن وقطعة الماس ، ومن الفحم والماس .

وفى هذا المقال يرى القارىء كلمتين من الكتاب نفسه : الأولى قصة الشيخ والبرهمن ، ونهر الكنج وجبل هماله ، والثانية « الوقت سيف » . وإذا رأى القارىء غموضاً فى بعض الجمل فمرجع هذا أن كثيراً من المعانى والعبارات غير مألوف فى العربية ، وأن الشاعر الكبير يعرض آراء من فلسفته الخاصة ، لم تذلل لها اللغة التى كتب بها . وهو يشكو فى كلامه عن الوقت من أن الألفاظ تضيق بالمعانى التى يحسها .

وكان أهون علىّ أن أكتب فى موضوعات أخرى هى أقرب الى القراء ، لولا أنى أود أن أبين جهد الطاقة عن جوانب مجهولة من أدبنا الشرقى ، ولاسيما فلسفة شاعر الاسلام الأكبر محمد اقبال

ويرى القارىء أنى أحاول بالسجع تدارك بعض مافات من الوزن والقافية .

— ١ —

« قصة الشيخ ، البرهمن ، وحديث كنكا وهماله فى بيان أن حياة الأمة تستمر بالمحافظة على سننها »

كان فى بنارس برهمند من الكبراء ، غواص فى بحر الحياة والفناء . ملك زمام الحكمة ، وشحذ فى الطلب الهمة ، متوقد الذهن ، يتحرى الدقائق ، ويحلّق فوق الثريا فى طلب الحقائق . أوغل فى لوح الجوّ كالعنقاء ، واضطربت الشمس والقمر فى شعلة فكره الوضاء . مُنى زماناً بالحرمان والحسرة ، لم تصب كأسه قطرة من الحكمة ، وألقى شبكته فى رياض المعرفة ، فلم تر طائر المعنى عين الشبكة ، وأدمى مخالب الفكر المجهود ، ولم يحل عقدة الوجود ، نطقت بعجزه آهاته ، وصورت حيرة قلبه قسماته .

ذهب يوماً الى شيخ عظيم ، ذى قلب سليم ، فأصغى الشيخ لحديثه حتى عرف مكنون صدره ، ثم قال : أيها الطائف فى الأفلاك ! اتخذ فى الأرض مثواك . اغتربت عن المرج والصحراء فجاز فكرك آفاق السماء . ياطاوى السماء اسكن الى الأرض قليلاً ، ودع حقائق النجوم حيناً . لا أقول لك اهجر أصنامك ، أنت كافر فكن جديراً بزنارك . ياأميناً على التهذيب القديم ، لاتحقر دين آبائك الأولين . فان فى الألفة حياة الأمة ، والكفر كذلك من أسباب الألفة . أنت ناقص حتى فى الكفر ، فلست أهلاً للطواف فى حرم القلب . لقد بعدنا عن جادة التسليم ، بعدتَ عن آذر وبعدتُ عن ابراهيم . قَيْسُنا ليس هائماً بالمحمل ، وهو فى جنون العشق لم يكمل [1] ، ماجدوى الخيال الذى يطوى السماء ، إن كان شمع الذاتية الى انطفاء .

قال نهر الكنج يوما لجبل همالة وهو يجرى فى سفحه : أيها المتوّج بالبَرد من فجر الخليقة ، والمتخذ زناراً من الأنهار الجارية . جعلك الله نجىّ السماء ، ولكن حرمك التبختر فى العراء ، ماغناء هذا الوقار والرسوخ والرفعة ، وقد سلبت رجلك الحياة والحركة؟ الحياة سعى دائم كالموج ، وجوده من الاضطراب المتصل .

فلما سمع الجبل تعيير النهر ، أرسل أنفاسه بحراً من نار وقال : يامن انخذتُ صفحته مرآتى ، وأكننت مئات من مثله فى صدرى إن هذا التبختر زينة الفناء ، من ذهب عن نفسه فقد حرم البقاء ، قد غفلت عن مقامك ، ونفرت بهلاكك ، يا وليد الفلك الرفيع [2] ، خير منك الساحل الوضيع ، جعلت نفسك قربان المحيط ، ونثرت جوهر روحك لقاطع الطريق ، كن وَرداً فى بستانك ، ولا تذهب وراء قاطف الورد لتنثر عبيرك ، ان الحياة أن تنمو فى مكانك ، وأن نقطف الورد من بستانك ، خلت القرون وأنا فى طينتى ثابت القدم ، وتحسبنى الى الغاية لم أتقدم ، كلا قد عظمت حتى بلغت السماء ، واستراحت على سفحى الجوزاء ، وقد ضل وجودك فى البحر الخضم ، وصارت ذروتى مسجَد الأنجم عينى بأسرار الفلك بصيرة ، وأذنى بطيرانه خبيرة ، احترقتُ بنار السعى الدائم ، فجمعت فى صدرى الجواهر « فى صدرى حجارة وفى الحجارة نار ، ليس للماء سبيل الى هذه النار » [3] ان كنت

(١) اشارة الى قصة مجنون ليلى

(٢) يعتقد الهنود أن الكنج يأتى من السماء

(٣) اقتباس من شعر مولانا جلال الدين الرومى

قطرة فلا ترق نفسك بيدك ، وجاهد اللجة وحارب اليم لحياتك ، كن جوهراً لألاء ، يزيد جيد الحسناء ضياء ، أو اسمُ بنفسك وأسرع التسيار ، وكن سحابا يرمى البروق ويمطر البحار ، ليستجدى البحر احسانك ، ويشكو ضيقه بانعامك ، ويرى نفسه أقل من موجة لديك ، ويطرح نفسه أمام قدميك .

— ٢ —

أتبع الشاعر الفصل السابق بفصل عنوانه « نصيحة أمير نجاة النقشبندى المعروف ببابا الصحراوى ، التى كتبها لمسلمى الهند »

وهو فصل ممتع بلغ فيه الكاتب من سموّ الشعر ، وعظمة النفس مبلغه . ثم أتبعه بكلمة عنوانها « الوقت سيف » وهذه ترجمتها : —

سقى الله ثرى الشافعى ، كما استقى الناس من فيضه ، لقد اقتطف فكره كوكبا من السماء ، حين سمى الوقت سيفاً ذا مضاء ، ماذا أقول فى سر هذا السيف الذى يفيض بالحياة ماؤه ؟ ان صاحبه فوق الخوف والرجاء ، ويده أنصع من يد الكليم البيضاء ، يلين الحجر لضربته ، ويبس البحر لهيبته ، كان هذا السيف فى يد موسى فعلا أمره على التدبير ، شق صدر بحر القلزم ، فانقلب برّا ذلك العيلم ، وكان فى كف حيدر فاتح خيبر ، ذلك السيف العظيم الأثر .

إن البصير يرى دوران السماء ، ويدرك تقلب الليل والنهار فى الفضاء ، انظر يا أسير الأمس والغد ، تر فى قلبك عالما لا يحد ، زرعت بذور الظلام فى طينتك ، وتوهمت الوقت خطأً بجهلك ، ثم قست طول الزمان بمعيار الليل والنهار ، واتخذت هذا الخيط زنارا ، فلت الى الأصنام واتخذت الباطل متجرا ، كنت كيمياء فانقلبت قبضة طين ، وولدت الحق ثم صرت الباطل المهين .

إن تكن مسلماً فتحرّر من هذا الزنار ، وكن شمماً فى محافل الأحرار . لقد جهلت أصل الزمان فجهلت الحياة الخالدة ، يا أسيراً فى الليل والنهار مثواه ، تعرف رمز الوقت من « لى مع الله »(١) كل شئ من سير الوقت ظاهر ، والحياة سر من أسرار الوقت الباهر ، ليس الوقت من دوران الشمس العلية ، هو أبدىّ وهى ليست أبدية ، الوقت هو السرور والغم ، والعيد والمأتم ، وهو سر الضياء ، فى القمر وذُكاء ، قد بسطتَ الوقت كالمكان ، ثم فرقت بين الأمس والغد فى الحسبان ، يامن جفلت كالشذى من بستانك ، وبنيت سجنك بيدك ! إن وقتنا الذى لا أول له ولا آخر ، ينبت من بستان الضمير الناضر ، الحياة من الدهر والدهر من الحياة ، وقد قال الرسول لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله .

استمع نكتة تضىء كالدر ، لتعرف فرق ما بين العبد والحرّ : العبد ضالّ فى الليل والنهار ، والزمان فى قلب الحر ضالّ . العبد ينسج من الأيام كفنه ، ويخيط الليل والنهار على نفسه ، والحرّ يخلع نفسه من الطين ، ثم ينسج على الزمان عزمه المتين . العبد طائر فى شبكة الصباح والمساء ، حرمت روحه لذة السبح فى الهواء ، وصدر الحرّ الهمام ، قفس لطائر الأيام ، فطرة العبد تحصيل الحاصل ، وخواطره تكرار قاتل ، مقامه من الخمود واحد ، وصوته بالليل والنهار راكد . والحر كل حين خلاّق ، يسكب وتره نغمة مجددة فى الآفاق ، فطرته لا تحتمل التكرار ، وليس طريقه حلقة البركار ، العبد فى سلاسل من أيامه ، والقضاء والقدر وِرد لسانه . وهمة الحر مشيرة على القضاء ، تصوّر يده الحادثات كما تشاء ، الماضى والآتى ماثلان لديه ، والآجل عاجل بين يديه .

هذا كلام برىء من الصوت والصدى ، يأبى على الادراك أبدا . أقول ولفظى من المعنى يخجل ، ومعناى من ذلك اللفظ أجلّ ، يموت المعنى الحى فى هذه الحروف الجامدة ، وتخمد ناره بأنفاسك الباردة . ان فى القلب نكتة الغيبة والحضور ، وإن فى القلب رمز الأيام والمرور ، مزهر الوقت ذو نغمة صامتة ، فغُص فى قلبك لتدرك أسراره الخافتة .

نضّر الله عهداً كان سيف الزمان ، حليف أيدينا على الحدثان ، فبذرنا الدين فى أرض القلوب ، ورفعنا الحجاب عن وجه الحق المحجوب ، وحلت عقدة الدنيا أناملنا ، ونضر وجه الأرض سجودنا ، وشربنا الصهباء من دنّ الحق ، ثم سرنا بنشوة الحق بين الخلق ، يا من أترعت كأسه الخمر المعتقة ، وأذابت كأسه الصهباء المحرقة ، وملأه الكبر والغرور والأثرة ، فعيّرنا بالفقر والمتربة . لقد كانت كأسنا كذلك ، زينة المحافل ، يوم كنا وصدرنا بالقلب آهل ، ونار من غبار أقدامنا عصر جديد ، ينجلى بكل أمل بعيد ورويت مزرعة الحق بدمائنا ، وسعد عُبّاد الحق ببلائنا ، ودوّى العالم بتكبيرنا ،

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) اشارة الى الحديث الذى يرويه الصوفية « لى مع الله وقت لا يسعنى فيه نبى مرسل ولا ملك مقرب » .